نشأة علي رضي الله عنه

هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ابن عم رسول الله ، وزوج ابنته فاطمة رضي الله عنها، ووالد سبطيه الحسن والحسين سيدي شباب أهل الجنة، له في الإسلام السابقة العظيمة، والمآثر الجليلة، فهو أول من أسلم من الصبيان، ونام في فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الهجرة.

علي بن أبي طالب في ميزان الإسلام

لا يعبر عن جليل قدره، وعظم مكانته إلا ما ورد عن رسول الله من أحاديث منها:

عن جابر رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله إلى نخيل امرأة من الأنصار، فقال: يَطْلُعُ عَلَيْكُمْ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ. فطلع أبو بكر، فبشرناه، ثم قال: يَطْلُعُ عَلَيْكُمْ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ. فطلع عمر، فبشرناه، ثم قال: يَطْلُعُ عَلَيْكُمْ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ. وجعل ينظر من النخل، ويقول: اللَّهُمَّ إِنْ شِئْتَ جَعَلْتَهُ عَلِيًّا. فطلع عليّ، وفي رواية أخرى: فدخل عليّ، فهنأناه

وقد شهد له رسول الله، بأنه يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، فعن سهل بن سعد أن رسول الله قال يوم خيبر: لأُعْطِيَنَّ هَذِهِ الرَّايَةَ رَجُلاً يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبَّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ. قال: فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها. قال: فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله كلهم يرجون أن يعطاها، فقال: أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟ فقالوا: هو يا رسول الله يشتكي عينيه. قال: فَأَرْسِلُوا إِلَيْهِ.

فأتي به، فبصق رسول الله في عينيه، ودعا له فبرئ، حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية، فقال عليّ: يا رسول الله، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال: انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِيهِ، فَوَاللَّهِ لأَنْ يَهْدِي اللَّهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْر النَّعَمِ

بل جعل النبي محبة عليٍّ من علامات الإيمان، وبغضه من علامات النفاق، فقد قال عليّ رضي الله عنه: والذي فلق الجبة، وبرأ النسمة، إنه لعهد النبي صلى الله عليه وسلم إليّ: لا يحبني إلا مؤمن، ولا يبغضني إلا منافق.

وقد أعلى رسول الله مكانته، وقربه منه، حتى قال له لما استخلفه على المدينة في غزوة تبوك: أَلاَ تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى؟ إِلاَّ أَنَّهُ لَيْسَ نَبِيٌّ بَعْدِي.

وجعل إيذاء عليٍّ إيذاءً له شخصيًا، فعن عمرو بن شاس الأسلمي، وكان من أصحاب الحديبية، قال: خرجت مع عليٍّ إلى اليمن، فجفاني في سفري ذلك حتى وجدت في نفسي عليه، فلما قدمت أظهرت شكايته في المسجد حتى بلغ ذلك صلى الله عليه وسلم، فدخلت المسجد ذات غدوة، ورسول الله في ناس من أصحابه، فلما رآني أمدّني عينيه -يقول: حدّد إليَّ النظر- حتى إذا جلست قال: يَا عَمْرُو، وَاللَّه لَقَدْ آذَيْتَنِي. قلت: أعوذ بالله أن أوذيك يا رسول الله. قال: بَلَى مَن آذَى عَلِيًّا فَقَدْ آذَانِي.

ولم تكن المكانة لعليّ عند رسول الله غريبة، فإن السبب منزلته عند الله عز وجل، فعن بريدة رضي الله عنه قال: قال رسول الله: "إِنَّ اللَّه

أَمَرَنِي بِحُبِّ أَرَبَعَةٍ، وَأَخْبَرَنِي أَنَّهُ يُحِبُّهُمْ". قيل: يا رسول الله، سمهم لنا. قال: "عَلِيٌّ مِنْهُمْ- يقول ذلك ثلاثًا- وَأَبُو ذَرٍّ، وَالْمِقْدَادُ، وَسَلْمَانُ، أَمَرَنِي بِحُبِّهِمْ، وَأَخْبَرَنِي أَنَّهُ يُحِبُّهُمْ".

ومن هنا صار عليّ حبيب الله، وحبيب رسول الله، لذا فقد آخى رسول الله بين نفسه وعليٍّ، فيروي سعيد بن المسيب أن رسول الله آخى بين أصحابه فبقي رسول الله، وأبو بكر، وعمر، وعليّ، فآخى بين أبي بكر وعمر، وقال لعليٍّ: "أَنْتَ أَخِي وَأَنَا أَخُوكَ".

أقوال الصحابة والتابعين

- عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إذا حدثنا ثقة عن عليّ بفُتيا، لا نعدوها.

- أخرج ابن عساكر عن ابن عباس أيضًا قوله: ما نزل في أحدٍ من كتاب الله تعالى ما نزل في عليٍّ.

- وعن أبي ذر قال: ما كنا نعرف المنافقين إلا بتكذيبهم الله ورسوله، والتخلف عن الصلوات، والبغض لعليٍّ بن أبي طالب.

- ولما جاء خبر قتل عليٍّ إلى معاوية أخذ يبكي، فقالت امرأته: ما يبكيك وقد قاتلته؟ فقال: ويحك، إنك لا تدرين ما فقد الناس من الفضل والعلم والفقه.

- وطلب معاوية في خلافته من ضرار الصدائي أن يصف عليًا، فقال له: أعفني يا أمير المؤمنين. قال: لتصنفه.

-

قال: أما إذا كان لا بد من وصفه، فقد كان والله بعيد المدى، شديد القوى، يقول فصلا، ويحكم عدلا، يتفجر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من نواحيه، ويستوحش من الدنيا زهرتها، ويستأنس بالليل ووحشته، وكان غزير العبرة، طويل الفكرة، يعجبه من اللباس ما قصر، ومن الطعام ما خشن، وكان فينا كأحدنا، يحبنا إذا سألناه، ونحن والله لا نكاد نكلمه إلا هيبة، يعظم أهل الدين، ويحب المساكين، لا يطمع القوي في باطله، لا ييأس الضعيف من عدله، وأشهد أني قد رأيته في بعض مواقفه يقول: يا دنيا غُرّي غيري، إليّ تعرضت أم إليّ تشوفت؟! هيهات هيهات، قد باينتك ثلاثًا لا رجعة فيها، فعمرك قصير، وخطرك قليل، آه من قلة الزاد وبعد السفر، ووحشة الطريق. فبكى معاوية وقال: رحم الله أبا الحسن، كان والله كذلك.

- وسئل الحسن البصري عن علي بن أبي طالب فقال: كان عليّ والله سهمًا صائبًا من مرامي الله على عدوه، ورباني هذه الأمة، وذا فضلها، وذا سابقتها، وذا قرابتها من رسول الله، لم يكن بالنومة (الخامل) عن أمر الله، ولا بالملومة في دين الله، ولا بالسروقة لمال الله، أعطى القرآن عزائمه ففاز منه برياض مونقة.

- وقال سعيد بن المسيب رحمه الله: ما كان أحد بعد رسول الله أعلم من عليٍّ بن أبي طالب.

- وقال مسروق: انتهى علم أصحاب النبي إلى هؤلاء النفر عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب،

ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبي الدرداء، وأبي موسى الأشعري.

- وقال عبد الله بن عياش: كان لعليٍّ ما شئت من ضرسٍ قاطع في العلم، وكان له البسطة، في العشيرة، والقدم في الإسلام، والعهد برسول الله، والفقه في السنة، والنجدة في الحرب، والجود في المال.

مما نزل في علي من القرآن

جاء في صحيح البخاري عن علي بن أبي طالب أنه قال: أنا أول من يجثو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة.

وقال قيس بن عباد: وفيهم أنزلت: {هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ} [الحج:١٩]. قال: هم الذين تبارزوا يوم بدر: حمزة وعليّ وعبيدة أو أبو عبيدة بن الحارث، وشيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة.

زواج علي من فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم

كان عليّ يريد الزواج من السيدة فاطمة بنت رسول الله، ولكن ضيق ذات اليد منعه أن يخطبها، ويتزوجها، حتى خُطبت السيدة فاطمة إلى رسول الله r، هنا نترك المجال لعلي بن أبي طالب ليروي بنفسه قائلاً: خُطبت فاطمة إلى رسول الله، فقالت مولاة لي: هل علمت أن فاطمة قد خُطبت إلى رسول الله؟ قلت: لا. قالت: فقد خطبت، فما يمنعك أن تأتي رسول الله فيزوجك؟ فقلت: وعندي شيء أتزوج به؟ فقالت: إنك إن جئت رسول الله زوجك. قال: فوالله ما زالت ترجّيني حتى دخلت على رسول الله.

دخل عليّ على رسول الله يريد أن يخطب فاطمة، فقعد بين يديه، لكنه لم يستطع الكلام لهيبته ، فقال: مَا جَاءَ بِكَ؟ أَلَكَ حَاجَةٌ؟ فسكت. فقال عليه الصلاة والسلام: لَعَلَّكَ جِئْتَ تَخْطِبُ فَاطِمَةَ. فقال: نعم. قال: وَهَلْ عِنْدَكَ مَنْ شَيْءٍ تَسْتَحِلُّهَا بِهِ؟ فقال: لا والله يا رسول الله. فقال: مَا فَعَلْتَ بِالدِّرْعِ الَّتِي سَلَّحْتكَهَا؟ فقال: عندي، والذي نفس عليٍّ بيده إنها لحطيمة ما ثمنها أربعمائة درهم. قال: قَدْ زَوَّجْتُكَ فَابْعَثْ بِهَا. فإن كانت لصداق فاطمة بنت رسول الله .

أما عن أثاث العرس، فقد كان يليق بزوجين من آل بيت النبوة، لا تعرف الدنيا لقلبهما طريقًا، فعن عليٍّ قال: جهز رسول الله فاطمة في خميلة (وهي قطيفة بيضاء من الصوف) ووسادة أدم حشوها ليف.

وفي ليلة العرس قال رسول الله لعليٍّ: لاَ تُحْدِثَنَّ شَيْئًا حَتَّى تَلْقَانِي. فدعا رسول الله بماء فتوضأ منه، ثم أفرغه على عليٍّ وقال: اللَّهُمَّ بَارِكْ فِيهِمَا، وَبَارِكْ عَلَيْهِمَا، وَبَارِكْ لَهُمَا فِي نَسْلِهِمَا.

ظروف تولّي علي الخلافة

اتخذ الانقسام الذي أفرزته الثورة على عثمان رضي الله عنه طابعًا نهائيًّا بفعل عمق الجرح واتساع الهوَّة بين الفئات المتناقضة التوجُّهات في المجتمع الإسلامى، وخلق فرزًا اجتماعيًّا جذريًّا بين الجمهور القبلي من جانب، وبين النخبة القرشية من جانبٍ آخر،

بالإضافة إلى ولادة الفرق السياسية ونشوء الفكر السياسي في تاريخ الإسلام[١].

كان الخيار المطروح بعد مقتل عثمان رضي الله عنه هو إمَّا العودة إلى نظام عمر رضي الله عنه الذي اعتمد أساسًا علي المصالح القبلية وقيمها، وإمَّا الاستمرار في السير على نهج عثمان رضي الله عنه من واقع النظام الجديد الذي يعتمد على أولويَّة المصالح القرشية، وقد توزَّعت مواقف الصحابة بخاصَّةٍ والمسلمين بعامَّةٍ بين هذين الخيارين، ومثَّل الصراع بين عليٍّ ومعاوية رضي الله عنهما هذه الثنائية المتناقضة، وقد تبنَّى الأوَّل مطالب الثائرين فى حين جسَّد الثاني الاستمراريَّة الحيَّة المباشرة لنهج عثمان رضي الله عنه.

تواجه الباحث صعوباتٍ عديدةٍ وهو يرسم صورة الأحداث التي تمَّ من خلالها اختيار الخليفة الراشدي الرابع؛ ذلك بفعل كثرة الروايات وتناقضها، لكنَّ الدراسة الموضوعية تُمكِّن من استيعاب الواقع التاريخي؛ إذ إنَّ اختيار علي رضي الله عنه كان وليد الظروف التي أعقبت مقتل عثمان رضي الله عنه مباشرةً؛ فقد خلَّفت حادثة القتل فراغًا سياسيًّا كان لا بُدَّ من ملئه على وجه السرعة، لهذا كان ضغط الوقت شديدًا على الجميع للإسراع في الاتفاق على مرشحٍ واحدٍ للخلافة، تُجمع عليه الأمَّة، وسط الذهول والانصدام والحذر والتريُّث الذي خيَّم على أهل المدينة.

كان الثائرون ما يزالون يُسيطرون على المدينة، ويملكون ناصية القرار السياسي والعسكري، إلَّا إنهم لم يمارسوا السلطة فعليًّا، وبدوا مرتبكين وغير متوحِّدين أمام جسامة الحدث الذي خلقته حركتهم،

وافتقروا إلى الرؤية الواضحة للخروج من المأزق، وبالتالي لم يملكوا مشروعًا للحلِّ يمسُّ الخلافة مباشرة، هذا في الوقت الذي أخذ فيه معظم الصحابة يتوارون عن الأنظار في عاصمة الخلافة مفضِّلين الابتعاد عن التطورات التي أفلتت من أيديهم، وكان الفراغ في السلطة يُنذر بأسوأ النتائج، واشتدَّت الحاجة إلى منقذٍ يتمتَّع بتأييد الأغلبية في التوجُّهات السياسية، وبخاصَّةٍ الممثِّلة لجماعة الثائرين المعنيَّة مباشرةً بالوضع القائم[٢].

هكذا رشَّح المصريون عليًّا رضي الله عنه فاختبأ منهم، وطلب الكوفيون الزبير بن العوام رضي الله عنه فلم يجدوه، فأرسلوا إليه رسلًا فباعدهم وتبرَّأ من مقالتهم، وطلب البصريُّون طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه فباعدهم –أيضًا- وتبرَّأ من مقالتهم، على الرغم من أنَّ كلًّا منهما كان طامعًا بالسلطة محبًّا لها، فإنَّ الجوَّ السياسي العامِّ كان لا يسمح بتولِّي منصب الخلافة من دون الاتهام بممالأة الثائرين؛ الأمر الذي دفع الثائرين إلى التفاوض مع كلٍّ من عبد الله بن عمر وسعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنهما، فرفضا وعدَّ كلٌّ منهما نفسه قد أُخرج من الأمر[٣]، عندئذٍ ترك هؤلاء الأمر لأهل المدينة.

توجَّه بعض الصحابة من المهاجرين والأنصار نحو عليٍّ رضي الله عنه وخاطبوه قائلين: "إنَّ هذا الرجل قد قُتل، ولا بُدَّ للناس من إمام، ولا نجد اليوم أحدًا أحقَّ بهذا الأمر منك، لا أقدم سابقة، ولا أقرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم"[٤]. والواضح أنَّ معالم شخصيته وحياته العامَّة جعلته -آنذاك- رجل الإسلام المهم.

الواقع أنَّ الوضع كان استثنائيًّا؛ إذ لا يُمكن أن يكون منصب الخلافة شاغرًا والمسلمون بلا راع في تلك الظروف العصيبة والمضطربة التي كانوا يعيشونها، ويُشير ذلك إلى خطورة الحالة والقلق من انهيار كلِّ شيء، ولا بُدَّ من تنصيب خليفة.

كان اسم عليٍّ رضي الله عنه يفرض نفسه؛ فهو الأكثر نشاطًا من خلال الأزمة، الذي بدا من خلال هذ الموقع المحاورَ الوحيد بعد انكفاء طلحة والزبير واعتزال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهم[٥]، وهم الأربعة الذين بقوا من أهل الشورى، ومثَّلوا النخبة السياسة في المدينة، كما أنَّه لم يكن موضع اتِّهام، غير أنَّ الأمور لم تجرِ على نحوٍ مؤسساتيٍّ وفقًا لآليَّة مجلس الشورى التي وضعها عمر t، ولا برضى بعض كبار الصحابة وموافقتهم؛ إنَّما جاءت كخطوةٍ شعبيَّةٍ دون استشارات؛ فقد قال جمهور المسلمين: "عليٌّ بن أبي طالب نحن راضون به"[٦].

الملاحظ أنَّ الثائرين الذين كانوا يُشكِّلون عامل ضغط تراجعوا عن التدخُّل في هذه العملية معترفين بأنَّ أهل المدينة وحدهم هم الذين كانوا يمنحون الشرعية، ونجحوا في طيِّ خلافاتهم من مشكلة المرشحين، وهو ما عبَّر عنه المصريون بقولهم: "أنتم أهل الشورى، وأنتم تعقدون الإمامة، وأمركم عابرٌ على الأمَّة، فانظروا رجلًا تُنصِّبونه، ونحن لكم تبع"[٧].

اختيار عليِّ بن أبي طالب للخلافة

لم يكن عليٌّ رضي الله عنه في البداية راغبًا في تولِّي الخلافة، وخاطب الذين رشَّحوه قائلًا: "لا تفعلوا، فإنِّي أكون وزيرًا خيرٌ من أن أكون أميرًا"[٨]. عندئذٍ صعد أهل الأمصار من ضغطهم فهدَّدوا أهل المدينة بقتل هؤلاء الثلاثة؛ عليٌّ وطلحة والزبير رضي الله عنهم وناسٌ كثير، ممَّا دفع عامَّة الناس بمطالبة عليٍّ رضي الله عنه بقبول البيعة وخوَّفوه الفتنة، فوافق كارهًا خشيةً منه على الدين والمسلمين من مزيدٍ من التمزُّق، وهدف إلى وأد الفتنة وإعادة تجميع جسم الأمة المتناثر، وترميم النظام القائم للسلطة، وتعزيز التواصل بين القوى الاجتماعية الجديدة الأكثر اعتدالًا والأقل تورُّطًا في القتل التي يُمثِّلها الأشتر وأصحابه[٩].

اشترط عليٌّ رضي الله عنه على أهل المدينة أن تتمَّ بيعتهم له عن عمليَّة شورى يشترك فيها الصحابة من أهل الشورى وأهل بدر وعامَّة الناس، وأن تكون علنيَّةً في المسجد[١٠]؛ ذلك حرصًا على جمع كافَّة المسلمين حوله، وهكذا بايعه من بايع من عامَّة المسلمين وكبار الصحابة، ومن بينهم طلحة والزبير رضي الله عنهما[١١]، ذلك يوم الجمعة في "٢٤ ذي الحجة ٣٥هـ/ ٢٣ يونيو ٦٥٦م"[١٢]. من هنا لا يُمكن القول: إنَّ عليًّا رضي الله عنه كان رجل الثائرين والمنتخب منهم كما سيدَّعي خصومه، ومن جهةٍ أخرى فإنَّه قَبِل بالتولية في ظروفٍ كهذه، وهذا يعني ضمنًا التسليم بالأمر الواقع، والتحوُّل نسبيًّا إلى رهينٍ للثورة[١٣].

الواضح أنَّه كانت هناك رغبةٌ للعودة إلى النظام من قِبَل عامَّة المسلمين بالإضافة إلى الثائرين، لكنَّ المعارضة السياسية لن تصدر عن عليٍّ رضي الله عنه ومن سانده، بل تحوَّلت إلى الذين يُريدون

الردَّ على مقتل عثمان رضي الله عنه، إذ وُجدت فئةٌ من كبار الصحابة ستتراجع عن بيعتها بحجَّة أنَّها جاءت تحت ظروفٍ قاهرة، إمَّا تحت تهديد السلاح من قِبَل أهل الأمصار، أو طوعًا انجرارًا مع العامَّة، أو خوفًا من بطش الغوغاء، وستنخرط في الحرب الأهلية، مثل الزبير وطلحة رضي الله عنهما[١٤].

يبدو أنَّ الذين استعْدوا عليًّا تحرَّكوا من خلال دافعين:

الأوَّل: هو افتقارهم إلى دور الشريك في السلطة وما يترتَّب على ذلك من تهديدٍ لمصالحهم الحيوية.

الثاني: هو الخوف على امتيازاتٍ لم يعد من السهولة التخلِّي عنها والعودة إلى نهج عمر الصَّارم والمتشدِّد[١٥].

لكنَّ عليًّا رضي الله عنه أضحى الخليفة الشرعيَّ للمسلمين؛ لأنَّ وجوه الصحابة والمسلمين من المهاجرين والأنصار قد بايعوه، وهم أهل الحلِّ والعقد، وإن لم يتوفَّر لبيعته إجماعٌ كالبيعات الثلاث السابقة؛ فقد ظلَّ معاوية رضي الله عنه خارج إطار المبايعة، واعتزل سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه ولم يُبايع، كما رفض عددٌ من الصحابة مبايعته انطلاقًا من كونهم عثمانيين، مثل: حسَّان بن ثابت، وكعب بن مالك، ومسلمة بن مخلد، وأبي سعيد الخدري، ومحمد بن مسلمة، والنعمان بن بشير، وزيد بن ثابت، ورافع بن خديج رضي الله عنهم، وغيرهم. وتردَّد الأمويُّون في البيعة؛ إذ رأوا في تولِّي عليٍّ رضي الله عنه الخلافة انتقالًا للسلطة من بني أميَّة إلى بني هاشم، ثُمَّ غادروا المدينة إلى مكَّة، مثل: مروان بن الحكم

والوليد بن عتبة وسعيد بن العاص رضي الله عنهم[١٦]. إنَّه موقفٌ قبليٌّ عشائري.

يبدو أنَّ المزاج العام السائد في الأمصار كان السبب الرئيس في خلق هذه الأكثرية لصالح عليٍّ رضي الله عنه ممَّا دفع أهل المدينة إلى مبايعته[١٧]. وتمَّت البيعة بعد خمسة أيامٍ من مقتل عثمان رضي الله عنه، والواقع أنَّ المفارقة المأساوية في حياة عليٍّ رضي الله عنه العامَّة هى أنَّه كان المرشَّح الأبرز، لكنَّه كان مع ذلك الخليفة الأكثر إنكارًا والأشدَّ محاربة[١٨].

حصل مقتل عليٍّ رضي الله عنه إثر اتِّفاقٍ بين الخوارج في مكَّة يقضي بقيام ثلاثة عناصر خارجيَّة هم عبد الرحمن بن ملجم المرادي، والحجَّاج بن عبد الله الصريحي -وهو البراك- وعمرو بن بكر التميمي، باغتيال الأشخاص الثلاثة الذين تسبَّبوا في انقسام المسلمين وتشتُّتهم، وهم عليُّ بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص رضي الله عنهم.

توجَّه كلٌّ واحدٍ منهم إلى المدينة التي يُقيم فيها صاحبه المكلَّف بقتله؛ الأوَّل إلى الكوفة، والثاني إلى دمشق، والثالث إلى الفسطاط، وتواعدوا على تنفيذ الخطة فجر يوم الجمعة (١٧رمضان ٤٠هـ= ٢٤ يناير ٦٦١م).

قَدِم ابن ملجم إلى الكوفة، واحتكَّ بوسطه الطبيعي -الخوارج- الذين ينتمي إليهم متكتِّمًا حول مشروعه ومنتظرًا الموعد المحدَّد، وساقته الصدفة في تلك الأثناء إلى التعرُّف على امرأةٍ تُدعى قطام بنت

الشجنة من تيم الرباب، فشغف بها وأراد أن يتزوَّجها، كانت هذه المرأة مشحونةً بميلٍ شديدٍ للانتقام من عليٍّ رضي الله عنه الذي قتل أباها وأخاها يوم النهروان، فاشترطت عليه عدَّة شروط كمهرٍ لها كان من بينها قتل عليٍّ رضي الله عنه، لكنَّ هذا الواقع صادف مشروعًا مخطَّطًا له، فباح لها عندئذٍ بسرِّه وأخبرها عن سبب حضوره "فوالله ما جاء بي إلى هذا المصر إلَّا قتْل عليٍّ رضي الله عنه، فلكِ ما سألتِ".

قامت قطام بتنظيم عملية القتل، واختارت شخصًا من قومها لمساعدة ابن ملجم يُدعى وردان، واستمال ابن ملجم -من جانبه- رجلًا ثانيًا يُدعى شبيب بن نجدة الأشجعي الحروري، وقام بتسميم سيفه بحيث أنَّ عليًّا رضي الله عنه لا يُمكنه أن ينجو حتى ولو أصيب بجرح.

تربَّص الثلاثة في اليوم المحدَّد لعليٍّ رضي الله عنه في المسجد، وما إن دخل عليٌّ رضي الله عنه وراح يدعو الناس إلى صلاة الفجر عاجله شبيب بضربةٍ من سيفه، لكنَّه أخطأه وأصاب عضادة الباب[٢]، فأعقبه ابن ملجم بضربةٍ أخرى وهو يقول: "الحكم لله يا علي لا لك ولا لأصحابك" وأصابته في جبهته وشجَّتها، فسال الدم على لحيته.

كانت الضربة محكمة وقاتلة، وسيقضي عليٌّ رضي الله عنه ليلتين وهو يحتضر، وقبض الحاضرون على ابن ملجم ولاذ شبيب بالفرار وتمكَّن من النجاة، أمَّا وردان فانفلت في زحام الناس، لكن أدركه رجلٌ من حضرموت وقتله.

حُمِل عليٌّ رضي الله عنه إلى بيته وهو يقول "لا إله إلا الله"، وطلب من ابنه الحسن رضي الله عنهما أن يقتل ابن ملجم إن هو مات، ثُمَّ أخذ يُوصي بنيه بتقوى الله، وطلب منه المسلمون أن يُبايع ابنه الحسن، فأجابهم "لا آمركم ولا أنهاكم"، ثُمَّ تُوفِّي عليٌّ رضي الله عنه متأثِّرًا بجرحه، وصلَّى عليه ابنه الحسن رضي الله عنهما، ودفنه في دار الإمارة بالكوفة، وفي رواية فيما يلي قبلة المسجد الجامع، وأخفى قبره خشية من أن ينبشه الخوراج.

تلك إِذَنْ هي صورة الحادثة كما رواها الإخباريُّون، على الرغم من تشكيك عددٍ من المؤرخين بصحة بعض فصولها إلَّا أنَّ هناك إجماعًا على أنَّ عملية الاغتيال تمَّت على أيدي عناصر خارجية؛ انتقامًا لضحايا معركة النهروان، وإذا كان صحيحًا أنَّ هذا الاغتيال كان وليد الفتنة؛ فقد كان ذلك كنتيجة للتناقضات الداخلية في معسكر عليٍّ رضي الله عنه؛ ذلك لأنَّ الضربة ستأتي من الخوراج، والراجح أنَّه كان عملًا فرديًّا؛ إذ إنَّ حصول اتفاقٍ مسبقٍ بين الخوارج وتخطيطٍ لعملية القتل هو أمرٌ مستبعدٌ بفعل:

- أن معركة النهروان فرَّقت الخوارج وشتَّتتهم، فلم يبق منهم سوى مجموعاتٍ صغيرةٍ مبعثرةٍ في القرى.

- كراهية الخوراج أسلوب الاغتيالات في مواجهة أعدائهم.

- لم يكن الجوُّ السياسيُّ والعسكريُّ العام آنذاك مؤاتيًا لتجديد الاضطراب الخارجي.

وإذا أمكننا الحديث عن مؤامرةٍ، فإنَّها قد تمَّت بين عددٍ محدودٍ جدًّا من الخوارج ولا تُعبِّر بالضرورة عن تطلعات الحركة، أمَّا بقيَّة

المعلومات الخاصَّة بعملية القتل مثل قصة الحب بين قطام وابن ملجم والدور المزعوم للأشعث بن قيس الكندي، الذي رواه اليعقوبي وغيرها، فقد شكَّك العديد من المؤرِّخين في صحَّتها.

شكَّل اغتيال عليٌّ رضي الله عنه الضربة القاضية للدولة الراشديَّة، بعد أن حالت النزاعات الداخلية دون تثبيت جذورها في الأرض، وبذلك انطوت صفحة هذه الخلافة التي استلهمت من تجربة النبيِّ صلى الله عليه وسلم الرائدة بوصفها امتدادًا لعصر النبوة.